قراءة في مناهج البحث العلمي عند العرب

د/ محمد بوسعيد
جامعة المسيلة

الملخص:

يحاول هذا البحث أن يقدم قراءة لما أنتجه العقل العربي الإسلامي من أنماط التفكير العلمي والنقدي، في عصور الإبداع والعطاء المعرفي، مبينا أن العرب أسسوا في زمن مبكر ما يمكن أن نسميه منهجا علميا، مبرزا أن إبداعات العقل العربي – رغم محدوديتها- شكلت إضافة علمية مهمة يمكن استثمارها لتأسيس نهضة علمية شاملة متفتحة على منجزات العصر، ومتمسكة بمقوماتنا الحضارية من عقيدة وثقافة ولغة.

Abstract:

This reasrch tries to present a reading of what the Arabic Islamic mid has produced scientific and critical patterns of thinking, in the ages of creativity and cognitive provision .Its hows that the Arabs established what is called a scientific method .It Highlights that the creativity of the Arabic mind , despite the Fact that it is limited, has Form an Important scientific addition that can be invested to establish an inclusive scientific renaicsance , opend on the era hatched to our civiliza tional constitutives as doctrine, culture ind language .

*** *** ***

يعد منهج البحث العلمي من أهم منجزات الحضارة الحديثة، والتي يمكن أن نسميها حضارة المناهج، لأن ما شهده هذا العصر من تراكم معرفي، وانفجار تكنولوجي ومعلوماتي رهيب، وتطور مذهل في جميع ميادين الحياة، يعزى في معظم جوانبه إلى تطور مناهج البحث العلمي الذي غير كثيرا من المفاهيم والنظريات، وأنماط العمل والعلاقات، وكان له أعظم الأثر في إعادة صياغة وعي الإنسان، وتغيير نمط حياته وتفكيره، وخدمة أغراضه الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية والإيديولوجية. وليس مستبعدا أن يقوّض عصر المعلوماتية بتسارعه المذهل كثيرا من انجازات الماضي ويحيلها إلى المتحف، أو يفرز أنماطاً معرفية جديدة

تختلف عن نظامنا المعرفي الحالي، لما فتحه للإنسان من آفاق، وما أمده من وسائل وإمكانات غير مسبوقة في تحصيل المعرفة .

ومنهج البحث العلمي في أبسط مظاهره وإجراءاته هو الجهد العقلي الذي يبذله الإنسان لفهم الوجود، واكتشاف وسائل التعامل مع الحياة والأحياء، والاستخدام الأمثل لموارد الطبيعة، وتحسين مردود الإنسان، وتلبية متطلباته المادية والمعنوية . وهو بصورته الحالية لم ينشأ من فراغ أو بمحض الصدفة، وإنما كان حصيلة جهود متواصلة، فقد وضع اليونان أوصوله الأولى، ثم وظف العرب معطياته لتأصيل معارفهم في العصور الذهبية، وانتقل عبرهم إلى أوربا، حيث دارت في الغرب مساجلات عن كيفية اكتساب المعرفة، رأت بضرورة استغلال الميراث العقلي اليوناني الذي صاغ أصوله النظرية والعقلية أفلاطون وأرسطو من خلال إلحاحهما على دور الملاحظة والاستنباط والاستقراء في تحصيل المعرفة . يقول ديفيد ريزنيك "المنهج العلمي كما هو معروف اليوم لم ينشأ فجأة أو بمحض المصادفة . ففي الغرب دارت مساجلات حول كيفية اكتساب المعرفة، ترجع أصولها إلى اليونان القديمة، حيث ناقش أفلاطون وأرسطو دور التأمل والملاحظة والاستنباط والاستقراء في اكتساب المعرفة . فقد رأى أفلاطون أنه من الممكن أن تكتسب معرفة حقيقية فقط عن طريق تأمل صورة سرمدية ثابتة وغير فيزيقية...واعتقد أرسطو على الجانب الآخر، أن من الممكن أن نحصل على المعرفة عن طريق ملاحظة العالم الطبيعي ما دامت الصور قد تكون كامنة في الطبيعة . وادعى أرسطو أن الاستقراء والاستنباط يلعبان دوراً مهما في العلم، إذ يمكننا أن نستخدم الاستقراء لنمو التعميمات الكيفية ... وبينما قدم أفلاطون إسهامات غاية في الأهمية في الفلسفة والسياسة، نجد معظم مؤرخي العلم يؤكدون بالفعل على أن أرسطو هو الذي وضع حجر الزاوية للمنهج العلمي "(1)

وقد نشأ البحث العلمي في العصر الحديث ضمن نسق معرفي مثلته ثلاث مدارس هي : المدرسة العقلا نية، والمدرسة الوضعية، والمدرسة التجريبية، وكان لكل واحدة منها نظرتها وفهمها لظواهر الكون، ووسائل التعاطي معه، واعتمادها على التفكير العقلي، والملاحظة الدقيقة، والمقاربة المنهجية، والتجربة الحسية . وقد اكتسحت التجريبية والوضعية ميادين البحث العلمي منذ القرن العشرين،

حتى صارت المؤشرات الكمية و الصيغ الإحصائية من أهم مجالات البحث العلمي، ولذلك تعددت مناهج البحث العلمي " وأصبح مقياس نضج هذا العلم أو ذاك بمقدار ما يملكه من موسوعة المناهج وأدوات البحث والاستعارة والمقابلة والملاحظة والمشاركة والتعريفات الإجرائية التي تلبي متطلبات المعرفة الوضعية والتجريبية "[(2)]

وبالرغم مما حققته المدرستان من انجازعلمي هائل شمل جميع مظاهر الحياة المادية، فإن الإنسان ظل- في هذا الجو المادي الذي يغلب عليهما - يعاني التخلف الأخلاقي، ويشعر بالضياع والاغتراب الروحي " ذلك لأن هاتين المدرستين اللتين تقاسمتا السيادة على ميادين البحث العلمي، انطلقتا من رؤى مادية قاصرة عن فهم الوجود، وإمكانات عقلية مهما بدت متقدمة، فهي محدودة في عالم الشهادة، قاصرة وعاجزة عن فهم عالم الغيب الذي يشكل مع عالم الشهادة، الوجود الكلي الشامل، وكذلك فهي مهما ادعت الشمولية فإنها – كما تؤكد أحداث التاريخ المعاصر– محددة بالواقع الأوربي إنساناً وثقافة وحضارة كما عبرت عنها " المركزية الأوربية " التي رأت في أوربا أنها " عقل العالم".. ولذلك فإنها – وبالنتائج التي حققتها غير قادرة على تلبية حاجات البشرية، وغير قادرة على فهم الوجود والتعامل معه، وغير قادرة بالتالي على توفير مستلزمات الأمن الحضاري للإنسانية، الأمر الذي يجعل طرح مفهوم إسلامي للبحث العلمي ضرورة شرعية وعلمية، فهو ضرورة من حيث إن فهم العالم والإنسان والحياة لا يمكن أن يكون صحيحا وسليماً إلا في ضوء الوحي (القرآن والسنة) ومعطياتهما المعرفية والعلمية والأخلاقية{ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَيَ فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى } طه : 123 . وضرورة علمية لأن العلم والمنهج العلمي لابد أن يكونا شاملين للكون والإنسان والحياة، وهذا لا يكون إلاَّ في الوحي وبه ومعه "[(3)]

وتأسيساً على ما سبق نود في هذا البحث إعادة قراء المنجز النصي العربي في مجال البحث العلمي، على ضوء مناهج البحث الحديثة، وما تتطلبه من مراجعة ومساءلة لمنجزات العقل العربي، قصد معرفة البدائل والمفاهيم التي أسسها علماء المسلمين في عصور الرقي العلمي، منذ ظهور الإسلام وتفاعل العرب ثقافياً مع شعوب البلدان التي فتحوها،وسعيهم إلى تأسيس منهج في البحث والتلقي، يتفق في بعض مضامينه وآلياته مع ما توصل إليه المنهج العلمي الحديث .

إن إعادة قراءة المنجز النصي العربي برؤية نقدية شاملة، تعطينا فكرة واضحة عن منهج العرب في تعاملهم مع الثقافات السائدة في عصرهم، وموقفهم منها، أو بالأحرى كيفية التعامل مع الموروث الثقافي الذي أبدعه غيرهم . إذ أقبلوا عليه قراءة ودراسة، وحاولوا الإفادة من مكوناته بعقلية متفتحة، وبلا خلفية تمنعهم من التجاوب معه، أو بصورة انتقائية، تجعلهم يميلون إلى ثقافة على حساب أخرى، ولذلك أسسوا ما يسمى مفهوم العالمية أو وحدة المعرفة الإنسانية على حد تعبير ج.ج كراوثر" كان العرب المسلمون أمة جديدة بلا تراث علمي سابق، فقرءوا التراث الفكري للقدماء بعقول متفتحة بلا خلفيات تعوقهم، ولذالك وقفت الثقافات الإغريقية واللاتينية والهندية والصينية جميعا بالنسبة لهم على قدم المساواة وكان من نتائج هذه العقلية المتعطشة للمعرفة عند المسلمين أنهم أصبحوا بالفعل المؤسسين الحقيقيين لمفهوم العالمية في المعرفة أو وحدة المعرفة الإنسانية وهي إحدى السمات بالغة الأهمية بالنسبة للعلم الحديث " (4)

إن تعاطي العرب المسلمين مع الثقافات الأجنبية على هذا النحو يعكس قيماً سمحة غرسها في نفوسهم الإسلام، ويجسد تفاعلهم ثقافياً واجتماعياً مع الشعوب التي نقلوا إليها تعاليم دينهم الحنيف، وشدة حماستهم لتلقي العلم، وحرصهم على نشره بين الناس دون تمييز، وبذلك خالفوا طريقة الكنيسة المنغلقة التي كانت تعتمد على رؤسائها في فهم الإنجيل:" كان المسلمون مفعمين بالحياة أنقياء . وكانوا أناساً تواقين متحمسين للفكر. وتتطلب الديانة الإسلامية من الأشخاص أن يفهموا القرآن من أجل أنفسهم، لذلك فإن معرفة القراءة والكتابة كانت منتشرة على عكس الكنيسة الرومانية المسيحية التي اعتمدت على فهم الإنجيل بواسطة رؤساء الكنيسة . وهو ما يعني أن رجال الدين فقط هم المطلوب منهم معرفة القراءة، وقد ترجم هذا التشديد على القراءة والكتابة إلى الاهتمام بكل الحرف الفكرية بما في ذلك السيمياء والتقنية الكيميائة، وقد اكتسبت المعرفة من العلماء والمدارس والمكتبات في البلدان المفتوحة" (5)

لقد بدأ المنهج العلمي الذي أسسه علماء العرب بنقل نماذج من الثقافة اليونانية إلى العربية في غضون فتوحات الإسكندر المقدوني، ونشأت بفعل ذلك مدرسة الإسكندرية، ومدرسة أنطاكية، وتخرج منهما علماء اشتغلوا بترجمة ونقل

آثار اليونان إلى العربية . وكان النقل في البداية من اليونانية إلى السريانية، ثم من السريانية إلى العربية ثم من اليونانية مباشرة إلى العربية، حيث نقل العرب الكتب الفلسفية والعلمية إلى اللغة العربية، واتسعت حركة النقل مع استقرار الحكم في الدولة العباسية، وبلغت الذروة أيام هارون الرشيد، وابنه المأمون الذي أسس بيت الحكمة، بحيث كان الإقبال على نقل العلوم وتأصيلها شديدا، ثم ما لبث العرب أن تجاوزوا مرحلة التمثل والتأصيل إلى مرحلة الإبداع والابتكار في وقت كانت أوروبا تعيش في الظلام، وتعاني من هيمنة الكنيسة على جميع مستويات الحياة.

لقد كانت حركة النقل هذه سبباً في تغيير العقلية العربية الإسلامية بما نقل إليها من تراث الشعوب الثقافي، وآليات البحث ومناهجه من استقراء وقياس وبرهان وتجربة، ممّا أدى إلى قيام نهضة علمية واسعة شملت مختلف حقول المعرفة، ومختلف البيئات، وكانت الروح العلمية والدقة المنهجية من أهم مظاهرها . لقد كان المسلمون مهيئين لتملك العلم وتوطينه، وتشكيل مجتمع علمي، له خصائصه ومواصفاته، انطلاقا من التصور الإسلامي الذي له منهجه في البحث وقراءة الكون والإنسان، يؤكد ذلك المدارس التي أسست في بغداد والقاهرة وقرطبة وسمرقند، والأسماء البارزة التي ظهرت، والكتب التي صنفت، والمواضيع التي طورت، والإضافات العلمية التي استحدثت، مع أنه تنبغي الإشارة إلى أن هذا النشاط العلمي والتأليفي كان يجري على قدر إمكاناتهم وقدراتهم آنذاك، ولا يمكن مقارنته بالعلم الحديث .

وقد اتخذ النشاط العلمي الذي كان يجري تحت أعين الخلفاء وبتشجيع منهم - في كثير من الأحيان – طابعا جماعيا ترعاه مؤسسات الدولة، وتنتدب له علماء متخصصين كالذي كان يجري في " بيت الحكمة الشهير كان يضم علماء الفلك مثل يحي بن أبي منصور، ومترجمين مثل الحجاج بن مطر- مترجم اقليدس وبطلميوس – ورياضيين مثل الخوارزمي، وكانت هناك مجموعة أخرى في بيت الحكمة وهي مجموعة بني موسى التي كانت تضم هلال بن هلال الحمصي، مترجم أبولونيوس، وكذلك المترجم البارز ثابت بن قرة، ونحن نعلم، أخيراً، أن بعض العلماء كانوا يتجمعون حول حنين والكندي وحول آخرين " (6)

وبعد مرحلة نقل العلوم واستيعابها،واستقرار العرب سياسياً واقتصاديا وعسكرياً، وتأصيل العلوم والمعارف، تكونت لهم نظرتهم الخاصة في بناء نظامهم المعرفي، وامتلكوا بعض آليات البحث كالاستقراء والملاحظة والتجربة، وهي من أهم المرتكزات التي انطلق منها الأوروبيون في تشييد صرحهم المعرفي، أثناء احتكاكهم بالحضارة العربية الإسلامية - فيما يعرف عندهم بمصطلح القرون الوسطى- مستفيدين من آخر ما توصل إليه علماء المسلمين من تقاليد علمية على نحو ما أكده برتراند راسل (1872-1970م): " في العصور الوسطى المظلمة كان العرب هم الذين يقومون بمهمة تنفيذ التقاليد العلمية، أما المسيحيون أمثال روجر وبيكون، فقد اكتسبوا منهم إلى حد بعيد ما اكتسبوه من معرفة علمية حازتها العصور الوسطى " (7)

وكانت هذه هي المرحلة الحاسمة التي تحرر فيها الإنسان الأوربي من نفوذ الكنيسة وطغيانها، معتمداً على العقل، وعلى استقراء الطبيعة بواسطة الملاحظة والتجربة في صياغة مناهج البحث، وإرساء مبادئ العقلانية، وهي أهم عناصر البحث عند العلماء . وربما كانت البداية من إثبات كوبرنيكوس أن الشمس هي مركز الكون، متأثراً بنظرية ابن الشاطر ت 1375م (8)

وإذا كان العلم في الحضارة الغربية - في هذه المرحلة - قد وقع الطلاق بينه وبين الدين ممثلاً في تعاليم الكنيسة، فإن العلم في الحضارة العربية الإسلامية ظل يسير بتوجيه من الدين، محتفظاً بمثله الأخلاقية، لأن السلطة الحاكمة كانت ترعى العلم ضمن المرجعية الإسلامية " ومن هنا انطلقت مرحلة مهمة من مراحل الحضارة ومن مراحل العلم على السواء، تميز العلم فيها عن العلم الغربي الحديث في أن هذا الأخير انفصل انفصالا بائناً عن القيم والأخلاق . أما العلم العربي في الحضارة الإسلامية فقد تأتى في إطار توجههم الأخلاقي المثالي العام .وبينما انطلق العلم الحديث من صراع دامٍ مرير مع الأيديولوجيا السائدة في أوروبا، فإن العلم العربي انطلق من داخل إطار الأيديولوجيا الحاكمة وبرعايتها. إن تمويل الخلفاء السخي للترجمة والبحث العلمي مسألة مذكورة ومشهورة، بيد أن هذا لا ينفي تجذر العلم في التربية " (9)

وفي الوقت الذي حقق فيه العرب انجازات هامة في ميدان البحث العلمي كان الصنيون– مثلا. يشهدون تخلفاً كبيرا في هذا المجال، ويعتمدون في الرياضيات على طرق بدائية، ولم يعرفوا الترقيم والنظام العشري والصفر، وكانوا يعوضون تخلفهم في علم الفلك بتوظيف فلكيين عرب" وظلت الرياضيات الصينية يعتمد العد فيها على استخدام العصي، ولم يعرفوا الترقيم العربي- الهندي واستخدام الصفر، ولا عرفوا شيئا عن حساب المثلثات على الرغم من أهميته في علم الفلك . وكما يقول "توبي هف"عوضوا ذلك بتوظيف فلكيين عرب في بكين منذ القرن الثالث عشر. وفي هذا التاريخ عرفوا لأول مرة الترقيم والنظام العشري والصفر واستخداماته، خصوصا بعد مجيء المبشرين المسحيين" (10)

إن المتتبع لأوجه النشاط المعرفي الذي اتسمت به منجزات العرب العلمية، ابتداء من القرن الثاني الهجري، يلاحظ ميلهم إلى التفكير النقدي، واعتمادهم المقاربة المنهجية، في تحليل الظواهر اللغوية والاجتماعية، وإن لم يمارسوا ذلك على نطاق شامل، يمثل بناءً علميا محكماً يطرد في جميع منجزاتهم، ويصبح قانوناً كلياً، ولو قدر لهذه الروح العلمية أن تتبلور ويتسع نطاقها ، وتصبح إحساساً جماعياً، لكان العرب هم المؤسسون الحقيقيون للمنهج العلمي الحديث الذي تفتخر به الحضارة الغربية اليوم وتنسبه إلى رينه ديكارت (1596- 1650) وأوغست كونت (1798-1857م)

وفي سياق رصدنا لإنجازات العقل العربي في مناهج البحث والتفكير، وإبراز إسهامات علماء المسلمين في هذا الحقل الذي كان أهم مجال تجلت فيه ممارساتهم العلمية والمنهجية، في إطار هويتهم العربية الإسلامية، نحاول مناقشة منظورهم من خلال محاور أربع نرها مؤسسة لما يمكن تسميته منهجاً علمياً وهي : نقد المرويات، ورفض التعصب، والتثبت من النتائج بالشك المنهجي، والاعتماد على التجارب الحسية ..

ومما لا شك فيه أن هذه المقاربات المنهجية التي واجه بها أسلافنا الواقع الثقافي لم تستنفد أغراضها، وبعضها يبدو وثيق الصلة بما طرحته المناهج الحديثة في ميدان البحث العلمي، ممّا يعني أن استلهام عناصرها الإيجابية قد يعيد تشكيل وعينا بتراثنا، ويربطنا بمرجعيتنا الذهنية والحضارية، في ظل تزايد التهافت على

المناهج الغربية دون وعي بحجم مخاطرها، ودون الخروج من دائرة التخبط الفكري الذي وقعنا فيه ونحن نشيد مشروعنا النهضوي منذ بداية القرن الماضي.

نقد المرويات:

لعل السمة البارزة التي تفردت بها الثقافة العربية،أنها تعتمد أساساً على توثيق الرواية والتأكد من صحة الخبر، وعلماء الإسلام أهم من نقد الرواية، ووضع لها قواعد وأصول لا تزال معتمدة في الأوساط العلمية إلى اليوم " أول من نظم نقد الروايات التاريخية ووضع القواعد لذلك علماء الدين الإسلامي، فإنهم اضطروا اضطراراً إلى الاعتناء بأقوال النبي وأفعاله لفهم القرآن...فانبروا لجمع الأحاديث ودرسها وتدقيقها فأتحفوا علم التاريخ بقواعد لا تزال في اسمها وجوهرها،محترمة في الأوساط العلمية حتى يومنا هذا"[(11)]

لقد اعتنى العلماء بحديث النبي صلى الله عليه وسلم ن، واتبعوا طرقاً للمحافظة على سلامة وصحة مروياته، شفاهية كانت أو كتابية، بالسند المتصل، فأسسوا بذلك علم الرواية " وأبدعوا الوسائل التي لا يوجد لها نظير بين الأمم الأخرى في مجال توثيق النصوص وضبطها، وابتكروا فنونا متعددة من العلوم من أجل تحقيق هذه الغاية، ولعل علم الرواية، وآدابها، وكيفية ضبطها، وطرق تحملها وأدائها من أجل العلوم في هذا الباب " [(12)]

فالرواية . إذن . تعد مصدراً هاماً في توثيق الخبر وصحته، وطرق حمله قبل تدوينه، وهي شكل من أشكال التأسيس لممارسة النقد في المدونة المعرفية عند العرب، لكن افتقاد نقل الأخبار إلى التوثيق الدقيق، يجعل صفاء الخبر، ووصول الأثر على حالته الأصلية ليس أمراً سهلاً، لأن العقلية البدائية التي نقلته لم تتوفر على نصيب من الدقة، ولم يتهيأ لها طرق نقد النص والتثبت من صحته، أو على الأقل عدم تناقضه مع سنن الكون، ومخالفته لمقتضيات الواقع ، ولهذا قبلت أخبار ونصوص كثيرة لا تخلو من سذاجة،لاسيما في الوجوه التي يكون فيها الأثر منقولاً عن زمن بعيد، متعدد الأشكال والصور، قبولا دون تدقيق أو تمحيص، لاسيما إذا علمنا أن بعض الآثار تعددت رواياتها، ولم تخل من اللبس الذي يحتاج إلى التثبت والتمحيص والتدقيق . وفي غياب التوثيق لا يمنع من أن يحدث الاضطراب والاختلاف في الرواية بطريق مقصود أو غير مقصود، فينقل الخبر على

غير صورته الأصلية، أو يحرف لخطأ يقع فيه الراوي، أو يتعمده لغرض مادي أو سياسي أو مذهبي، أو ينسجه من وحي خياله، فضلا عما يعتري الذاكرة من نسيان، أو حذف أو زيادة، أثناء عملية النقل والمشافهة، وما ينشأ عن ذلك من خلل أ وفساد، قلما تحافظ معه الرواية على صورتها الأصلية، وكل ذلك جعل المرويات التي وصلت إلينا موضع شك ونقد،لا يمكن قبولها والتسليم بصحتها إلاّ بإخضاعها للمنهج العلمي .

وهذه الأسباب كانت من أقوى العوامل التي ألجأت العرب إلى ضبط الرواية، والرغبة في توثيقها،حرصاً على سلامة النصوص وصحتها، وكانت لهم محاولات جادة في فحص وتنقيح ما وَهَمَ فيه السابقون . وبالرغم ممّا بذله القدماء من محاولات في هذا الشأن فقد لاحظ أصحاب المنهج العقلي أن بعض المرويات لم تسلم من الوضع والخلل، ولذلك تصدوا لنقدها وطبقوا منهجاً دقيقاً في نقدها، يكشف عما كانوا يتمتعون به من مقاربة منهجية في نقد الخبر، وتحليل عناصره.

ويعد إبراهيم النظام ت 231 هـ رائداً في نقد الرواية وتحليل عناصر الخبر، فكان ينقد ما يروى في الشعر العربي من أحاديث عن الجن والغيلان، مبيّناً أن ذلك نوعاً من الهوس الذي يخالط العقل البشري عندما يتبَدى، وينقطع عن الأنس، ويطول مقامه في الخلاء "إن القوم لما نزلوا ببلاد الوحش وعملت فيهم الوحشة، ومن انفرد وطال في البلاد والخلاء والبعد عن الناس استوحش. .. وإذا استوحش الإنسان مثل له الشيء الصغير في صورة الكبير، وارتاب وتفرق ذهنه...فيرى مالا يرى، ويسمع ما لم يسمع... ثم جعلوا ما تصور لهم من ذلك أشعاراً تناشدوها، وأحاديث توارثوها فازدادوا بذلك إيمانا، ونشأ عليه الناشئ وربي به الطفل... وربما كان في أصل الخلق والطبيعة نفاخاً كذابا... فيقول في ذلك من الشعر على حسب هذه الصفة، فعند ذلك يقول : رأيت الغيلان أو كلمت السعلاة ! ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول رافقتها، ثم يتجاوز ذلك إلى أن يقول تزوجتها " (13)

لعل أهم ما يستشف من تحليل هذا الخبر أنه يكشف عن حجم إسهام العرب . مبكرا.في وضع أسس المنهج العلمي في نقد الخبروتحليل معطياته، استناداً إلى منظور عقلي لا مجال فيه لترديد خرافات لا يقبلها العقل، ولا تثبتها التجربة: وهي لا تعدو

أن تكون ضرباً من الوهم يتلبس به عقل من تبدى وطال في الخلاء مقامه، وغلب عليه التوحش من تفرده وانقطاعه عن الناس.

والنظام في نقده للخبر يقيم نقده على أساس من التفكير العقلي، مبينا كيف تتضخم المرددات الشعبية وتكتسب بعداً نفسياً واجتماعياً رغم استحالتها، حتى تصبح نظاماً يتلقاه الناشئ، ويتربى عليه، ويصير جزءا من حياته رغم استحالته . وهي حالات يتلبس بها الإنسان عندما يصبح أمام حالة عجز تام، تجعله يقبل كل ما يورد عليه، نتيجة افتقاده إلى الثقافة العلمية، والتحليل المنطقي، وأكبر عجز يصيب الإنسان أن يصدق مَنْ يدعي رؤية ما لا يرى، ويصل الأمر به أن يتزوج الغيلان، وهو وهم يشبه الخرافة التي يرددها المشعوذون في أيامنا وهي زواج الإنس والجن من بعضهما.

ويستثمر الجاحظ ت 255هـ تلميذ النظام هذه الروح العلمية لنقد الواقع مستخدماً العقل لنقد الروايات المتعارضة، داعياً إلى ضرورة طرح الغلو والأخذ بأعدلها، أي منهج الوسطية " وهو أعدلها فتطرح قول المقصر من قول المغالي ثم تطرح ما حصل في يديك "[(14)]

وانطلاقا من المنهج العقلي يتصدى الجاحظ لنقد الذين يفسدون الكتب بنقل الغرائب، دون تثبت، ويجدون لذة في ورواية الغرائب والطرائف التي تفسد الكتب، ولو توفروا- في نظره- على نصيب من التثبت والتوقي، لسلمت الكتب من كثير من الفساد

والاستهتار"هؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم، ويتهمون الكتب، وتغرهم كثرة أتباعهم ممن تجده مستهترا بسماع الغريب، ومغرما بالطرائف والبدائع. ولو أعطوا مع هذا الاستهتار نصيباً من التثبت، وحظاً من التوقي لسلمت الكتب من كثير من الفساد"[(15)]

ولعل هذا ما نبه إليه ديفيد ب .رزنيك في العصر الحديث عندما جعل الأخلاق أهم معايير مهنية العلم، لأنه لا أضر بالعلم من الجهل والكذب، في" كتابه أخلاقيات العلم " [(16)]

إن من تمام نضج العقل أن ينقد الجاحظ وأمثاله من علماء الاعتزال في القرن الثالث الهجري غياب الثقافة العلمية، وغياب المنهج العلمي في التعاطي مع الواقع،

ويصير لهم ذلك منهجاً وطريقة في المعالجة، ويبنون نظاماً معرفياً على أساس عقلي، يمنعهم من الإفراط في الجهل والخطأ والضرر، وهذا ما أكده الجاحظ حين عرف العقل بأنه "يزم اللسان ويخطمه ويشكله ويربثه (يحبسه) ويقيد الفضل ويعقله عن أن يمضي فرطاً في سبيل الجهل والخطأ والمضرّة كما يعقل البعير، ويحجر على اليتم "(17)

ونجد هذه الروح العلمية في نقد الخبر عند ياقوت الحموي ت 626هـ في نقد خبر أورده البغدادي عن بناء المنصور لمدينة بغداد. يقول ياقوت "وكان المنصور كما ذكرنا بني مدينة مدورة وجعل داره وجامعه في وسطها، وبني القبة الخضراء فوق إيوان، وكان علوها ثمانين ذراعاً، وعلى رأس القبة صنم على صورة فارس في يده رمح، وكان السلطان إذا رأى الصنم استقبل بعض الجهات ومد الرمح نحوها علم أن بعض الخوارج يظهر من تلك الجهة، فلا يطول عليه الوقت حتى ترد عليه الأخبار بأن خارجيا قد هجم من تلك الناحية...

وبعد أن أورد الخبر كما رواه البغدادي رده واعتبره من الكذب الفاحش .

" قلت أنا هكذا ذكر الخطيب البغدادي وهو من المستحيل والكذب الفاحش، وإنما يحكى مثل هذا عن سحرة مصر وطلسمات بليناس ...ثم بين أن الملة الإسلامية تربأ بنفسها عن مثل هذه الخرافات، مشيراً إلى أن التمثال الجامد لا يعلم شيئا مما نسب إليه "فأما الملة الإسلامية فإنها تجل عن مثل هذه الخرافات، فإن من المعلوم أن الحيوان الناطق مكلف الصنائع لهذا التمثال لا يعلم شيئا مما ينسب إليه هذا الجماد، ولو كان نبيا مرسلا، وأيضا لو كان كلما توجهت إلى جهة خرج منها خارجي لوجب أن لا يزال خارجي يخرج في كل وقت، ومن كل جهة، لأنها لابد أن تتوجه إلى وجه من الوجوه، والله أعلم..." (18)

وواضح أن ياقوت قد عرض الرواية على محك العقل، ولم يجد أي مسوغ لقبولها، لأنها لا تعدو أن تكون ضرباً من الخرافة، والكذب الفاحش، بل هي ضرب من أوهام وطلاسم الأمم القديمة. ثم بين أن الأمة الإسلامية لا تقبل مثل هذه الأوهام لما يتميز به عقلها من واقعية تجلّ عن مثل هذه السخافات . وأن الصنم جامد لا يعلم شيئا مما ينسب إليه، وأن كونه متجها إلى جهة معينة يستوجب خروج العدو من كل جهة، وفي كل وقت.

ولعل هذا ما جعل ابن خلدون ت 808هـ يتصدى لنقد ما تضمنته المؤلفات التاريخية القديمة من أكاذيب وخرافات، مبيناً دور التشيع للآراء والمذاهب في نقل الكذب وترويجه "... ولما كان الكذب متطرقا للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه، فمنها التشيع للآراء والمذاهب، فإن النفس إذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى تتبين صدقه من كذبه، وإذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقها من الأخبار لأول وهلة، وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها على الانتقاد والتمحيص، فتقع في قبول الكذب ونقله"[19]

ويتضح في ضوء هذا النص إستراتيجية ابن خلدون في بلورة منهج نقدي يكشف فيه عن الأسباب التي تحمل النفس على قبول الكذب ونقله، من أبرزها التشيع الذي يعمي النفس عن الحق، ويقتل فيها الممارسة النقدية، وعندما تتحرر من هذه المظاهر السلبية تميل إلى الاعتدال، وتمارس حقها في النقد والتمحيص والإبداع.

ومن أسباب الوقوع في الخطأ في منهج ابن خلدون جهل المؤرخين بالسنن الكونية، ونقلهم لوقائع مستحيلة تتناقض مع العلوم الطبيعية، ومن ذلك ما نقله المسعودي عن الإسكندر حين صدته دواب البحر عن بناء مدينة الإسكندرية، فعمل لها تماثيل معدنية فلما عاينتها فرت، فتم له بناء المدينة . يقول ابن خلدون: " اتخذ تابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج وغاص فيه إلى قعر البحر حتى كتب صورة تلك الدواب الشيطانية التي رآها، وعمل تماثلها من أجساد معدنية، ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعاينتها، وتم له بناؤها"[20]

وبعد أن أورد ابن خلدون القصة كما رواها المسعودي نقدها نقداً علميا، مبيناً استحالتها لأن عملية التنفس تضيق في الصندوق الزجاجي، لفقدان من بداخله للأكسجين فيهلك " إن المنغمس في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء للتنفس الطبيعي الطبيعي وتسخن روحه بسرعة لقلته، فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة...ويهلك مكانه"[21]

وهكذا نجد ابن خلدون قد اتبع منهجاً علمياً في نقد رواية المسعودي يستند إلى خبرته بالعلوم الطبيعية، وقوانين المادة التي جعلته يتبين أن الخبر مستحيل، ولو توفر المسعودي على حظ من النقد والتمحيص والتوقف، وكانت له دراية بعلم وظائف الأعضاء، لكان في غنى عن نقل هذه الرواية.

إن رصيد الخبرة العلمية التي كان يمتلكها ابن خلدون قد استثمرها بدقة في جعله دراسة مضمون الخبر مقدماً على دراسة أحوال الرواة، ولذلك نجده يقرر رفض الخبر – مبدئيا - إذ ا كان يناقض طبائع العمران، ويراه مقدماً على تمحيص الرواة ، أي رفضه قبل المرور إلى دراسة أحوال الرواة، أو ما يعرف في أدبياتنا الإسلامية بالجرح والتعديل " وأمثال ذلك كثير، وتمحيصه إنما هو بمعرفة طبائع العمران، وهو أحسن الوجوه وأوثقها في تمحيص الأخبار وتمييز صدقها من كذبها، وهو سابق على التمحيص بتعديل الرواة، ولا يرجع إلى تعديل الرواة حتى يعلم أن ذلك الخبر في نفسه ممكن أو ممتنع. وأما إذا كان مستحيلاً فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح"[22]

وابن خلدون الذي جعل من طبائع العمران منهجاً لنقد الأخبار التاريخية وتمحيصها، واستند إلى منهج عقلي في نقد الأخبار المستحيلة التي نقلها المسعودي وغيره، وحقق قفزة هامة في ميدان البحث العلمي . وقد ذكر أسد رستم أن المؤلف الايطالي فلافيوس (1388- 1463م) عاصر ابن خلدون وطبق منهجاً عقلياً مثله، في تعامله مع أساطير السابقين " كتب في تاريخ روما، وحكم عقله، وطبق منطقه الفطري، فقذف بأساطير زملائه السابقين إلى حيث يطرح سقط المتاع، فكان خير زميل لجاره التونسي الكبير"[23]

إن أهم ما نخرج به من قراءة هذه المشاهد العقلية في تراثنا الثقافي، أن القدماء أسسوا ما يمكن أن نسميه منهجاً علمياً يستثمر مقومات التفكير العلمي في بناء النظام المعرفي، ونقد الواقع الذي كان يقوم في كثير من تجلياته على الخرافات والخوارق والأساطير، والأوهام المضللة التي تعرقل الإبداع، وتسعى إلى تكريس مظاهر الخضوع والإذلال، وكل أشكال السلبية والعشوائية ومعوقات النضج الحضاري.

ولعل المشهد الثقافي الحالي أصبح يكرس هذه الأنماط ويعيد إنتاجها، باتجاهه نحو الأساطير والخرافات حتى أصبح الحديث عن السحر والشعوذة وكرامات الأولياء والإيغال في التصوف ودواعي امتلاك الجن والزواج منهم عناوين بارزة في سلوكنا اليومي، تمارسها الطبقات الدنيا من المجتمع، والنخب الثقافية والسياسية ومؤسسات الدولة . و"تشير الدراسات إلى الانتشار الواسع للأساطير وممارسات

الشعوذة والتنجيم والتبريج وتعاطي السحر والطيّر والإيمان بالأشباح والاعتقاد في الأموات والأولياء ودعاوي امتلاك الجن والاستعانة بهم وقصص تلبس الجن بالبشر وزواجهم منهم واستيلائهم على مساكنهم . وتؤكد ذات الأدبيات أن تلك الممارسات والمعتقدات الخرافية لا تقتصر على التجمعات البدائية أو الريفية والشرائح الدنيا من المجتمع العربي بل تتجاوزها إلى التجمعات الحضارية والشرائح المتعلمة من الذكور والإناث صعودا إلى النخبة الثقافية والسياسية العربية في قمة المجتمع "[24] وهذه انتكاسة تذكرنا بما وقع للمجتمعات العربية والإسلامية بعد سقوط الخلافة، وتوقف العقل العربي عن الإبداع، فاسحاً المجال أمام الفرق الصوفية التي راحت تنشر مظاهر التواكل والتأزم والإحباط، وتعتمد على الخرافة والسحر في علاج مشكلات المجتمع وتعقيداته. وتقدم هذه الممارسات للمترددين عليها مفاهيم خاطئة، وتفسيرات جاهزة، لما يواجهونه من مشكلات، ومن شأن هذا الفكر الميتافيزيقي المتردي أن يشل طاقاتهم الإبداعية، ويبقيهم تحت ابتزاز صناع الخرافة والدجل، وتؤكد دراسة ميدانية أجراها مركز البحوث الجنائية في القاهرة أن العرب ينفقون على الشعوذة خمسة مليارات دولار سنويا، وأن هناك 250 ألفاً يمارسون مهنة الشعوذة في العالم العربي.[25]

ومن شأن بروز هذه المعوقات أن تحدث شرخا في الذات، وانتكاسة في الوعي،لأن التفكير العقلي لا يجد البيئة التي تحتضنه، وتهيئ له الظروف المواتية للتقدم العلمي، وتتيح له فرص الظهور، وطرح الحلول الممكنة . ولعل الروح العلمية والمنهجية التي وضع أصولها علماء االمسلمين، هي الروح العلمية نفسها التي أسس لها فرنسيس بيكون (1561- 1626 م) وأطلق عليها اسم "الأورغانون الجديد" مقابل" أورغانون" أرسطو، وسعى إلى صياغة منهج علمي جديد مفضٍ إلى نتائج علمية دقيقة وصحيحة، من خلال نقده للأوهام المتربصة بالعقل، والتي شكلت عليه عبئاً ثقيلا، وحجبت عنه الصواب، و يكون التخلص منها شرطاً مسبقاً لكل تجديد، وأطلق عليها " اسم الأوثان أو الأصنام idol، فهي تتحكم في العقل تحكماً رهيباً وتحجبه عن جادة الصواب، فتكون بمنزلة أصنام يعبدها... "[26]

رفض التعصب:

لعل أهم عقبة تقف في وجه الإبداع العلمي هي التعصب للموروث، وإضفاء مظاهر القداسة عليه، والانكفاء عن الذات، ومقاومة كل نزعة للتحرر من سلطانه، وهي وجه من أوجه الخرافة والوهم التي لم يتحرر منها الإنسان العربي، رغم الطفـرة المعرفية الهائلة التي أفرزها التطور التكنولوجي الرهيب .

لقد سيطرت فكرة تقديس سلبيات الماضي على الإنسان العربي، حتى أصبحت نمطاً سلوكياً يطبع الحياة والأحياء . وقد عرفت هذه الفكرة مقاومة شديدة من أصحاب الاتجاه العقلي، وكان الجاحظ من أشد كتاب عصره وعيا بخطورة هذه الظاهرة، فقاومها بشدة، واعتبرها ضررا فادحا على العلم والعلماء، وعلى الخاصة والعامة "ليس مما يستعمل الناس كلمة أضر بالعلم والعلماء ولا أضر بالخاصة والعامة من قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئا" (27)وقوله: "لو استعمل الناس ما في أيديهم فحسب لفقدوا علماً جماً ومرافق لا تحصى"(28)

فمن خلال هذا الموقف الواعي يبدو أن الانكفاء عن الماضي واجترار أفكاره المحنطة أمر فادح الضرر، بالغ الخطر، لأن ذلك مناقض لنواميس الحياة والأحياء، ومخالف لسنن التطور والارتقاء، ولو اكتفى الناس بما في أيديهم لجفت منابع العلم وتعطلت روح الإبداع، وما رأينا هذه المنجزات العلمية الباهرة التي أضافها العقل البشري في صيرورته التاريخية والحضارية . وقد ثبت - - نقلاً وعقلاً - أن السبق المعرفي ليس دليلاً على الصواب في كل الأحوال، فمنذ القدم أنتجت البشرية أُطراً معرفية واعتبرتها قيماً ثابتةً، ثم ما لبث أن تبين خطؤها، والاستدراك على أصحابها، فقد ظلت البشرية لمدة طويلة تحسب أن الأرض هي مركز الكون حسب نظرية "بطليموس" حتى جاء " كوبرنيكوس (1435-1543م) وأثبت أن الأرض تدور حول الشمس، واعتبر ذلك إنجازا باهرا في علم الفلك.

ولعل التعصب للقديم على الجديد كان أهم ميدان تجلى فيه التعصب، وقد شكل ذلك انحرافاً عن معايير العقلانية، لأن طائفة من العلماء كانت تزدري الجديد، وتطلق عليه أحكاماً يعوزها الدليل العقلي والموضوعية النقدية، وقد تراكمت هذه الأحكام بفعل عوامل سياسية ودينية، وربما عرقية، وأصبحت قوالب نمطية جاهزة، رفض أصحابها الإذعان للحق، وأبوا تعديل آرائهم حسب ظهور الدلائل،

فكان أحدهم يحكم على قصيدة بالجودة، ويبالغ في استحسانها، وإذا أبلغ بأنها بنت يومها،انقلب رأساً على عقب وكال لصاحبها الشتائم، ووصفه بالسخائم [29]

وكان ابن قتيبة تـ 276هـ من أكبر النقاد وعياً بخطورة ظاهرة التعصب للقديم في الحكم على الآثار الأدبية، وقد كشف عن منهج معتدل، كانت الموضوعية والقيمة العلمية من أهم مضامينه، محاولاً تأسيس نظرية نقدية تنطلق من الوظيفة الجمالية للأثر الفني كقيمة أساسية، رافضاً مبدأ معيارية الزمن في الحكم على الآثار الأدبية "ولا نظرت إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه، وإلى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حظه ووفرت عليه حقه... "

وخطورة الظاهرة لا تتجلى في سلوك العوام، وإنما عندما تصبح سلوكاً عند بعض العلماء " فإني رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله، ويضعه في متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب عنده إلا أنه قيل في زمانه أو أنه رأى قائله. ولم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ولا خص به قوما دون قوم، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر"[30]. ولعل هذا الموقف المشين من بعض العلماء، هو الذي جعل ابن المعتز يندد بالمعادين للمحدثين، ويصف فعلهم بأنه مفرط في القبح" وهذا الفعل من العلماء مفرط في القبح، لأنه يجب ألاّ يدفع إحسان محسن عدواً كان أو صديقاً، وأن تؤخذ الفائدة من الرفيع والوضيع" [31]

وإذا كانت الدراسات تؤكد خطورة هذه الظاهرة، فإن علماء المسلمين تصدوا لنقدها، و تشخيصها علمياً، واعتبروها انحرافاً عن المنهج السليم، وتعاملوا معها بفكر نقدي موضوعي، يرفض التعميم المفرط، ويعتمد الموضوعية معياراً، ودعوا إلى المساواة بين القديم والمحدث، وإبعاد السياقات في الحكم على الآثار الأدبية، ولذلك نجد أبا الفرج الإصفهاني يميز بين عقيدة الأحوص وجمالية شعره، أي إبعاد السياقات الخارجية، كما تقرره الاتجاهات النقدية المعاصرة " وليس ما جرى من ذكر الأحوص إرادة للغض منه في شعره ولكننا ذكرنا في كل ما يؤثر عنه ما تعرف به حاله من تقدم وتأخر، وفضيلة ونقص . فأما تفضيله وتقدمه في الشعر فمتعالم

مشهور، وشعره ينبئ عن نفسه ويدل على فضله وتقدمه وحسن رونقه وتهذبه وصفائه " (32)

إن هذه الروح النقدية دليل على ما كان يتمتع به علماء المسلمين من عقلية مستنيرة ترفض التعصب المقيت، كما ترفض فكرة تفضيل القديم على المحدث، وما من شأنه أن يقتل الرغبة في الإبداع، ويكرس أشكال الإتباع والاجترار، لأنه منذ أن وجد الإنسان لم تنقطع محاولاته للبحث عن فهم أفضل لنفسه، وللكون من حوله، باعتبار أن قوانين الإبداع متاحة للناس جميعا، ولأجل هذا نبه ابن قتيبة إلى فساد معايير علماء عصره، عندما أهملوا عامل التطور في الحكم على المنجزات العلمية والأدبية، لأن المتأخر يمتلك من التجارب والخبرات ما لم يمتلكه المتقدم، وهو ما أكده قبله الجاحظ الذي آمن بقدرة الإنسان على الإبداع، مبينا أن طول الزمن يعمق تجارب الإنسانية، ويزيد في ثرائها المعرفي "ينبغي أن يكون سبيلنا لمن بعدنا كسبيل من كان قبلنا، على أن قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا كما أن من بعدنا يجد من العبرة أكثر مما وجدنا" (33)

وفي الواقع فإن علماء المسلمين قد قاموا بشدة الانحياز إلى القديم، لأنه يعرض الموضوعية إلى شبهة،ويفسد البحث العلمي، وربما يكون ضرره أكثر من الخطأ . وهذا ما أكده صاحب أخلاقيات العلم "بأن هناك أنماطاً متباينة قد أفسدت ولا تزال تفسد البحث العلمي. وعلى الرغم من أن الانحياز كثيرا ما يؤدي إلى أخطاء، فإن هناك أسباباً كثيرة تبين أنه من المفيد التمييز بين الانحيازات والأخطاء...الانحيازات هي عيوب نسقية في البحث . إنها كالتفاح المعطوب تفسد البحث بأسره. فتأثيرها منعزل مثلا.."(34)

تأصيل النتائج بالشك:

إن الانطلاق من الشك لإثبات النتائج العلمية من أساسيات البحث العلمي الحديث، وهو من أهم المنجزات التي اتبعها العرب في سعيهم إلى تأكيد إبداعات العقل العربي حتى يصبح مؤهلا لاستيعاب التراكم المعرفي والإفادة منه لفهم نفسه وعلاقته بالكون. وهو نقيض العقلية البدائية التي تقبل كل ما يرد عليها دون مناقشة أو تحليل، فهي لا تعرف مرحلة الشك والتوقف، وتكتفي بالتصديق والجزم بالآراء وتوكيدها، وتلك مرحلة بدائية من مراحل التفكير الإنساني" وكلما ازداد الإنسان

علماً كلما تسلح بروح الشك، واتسعت آفاقه ونقد أوضاعه وحاسب نفسه،وشك فيما يرد عليه من حقائق وسلط الروح النقدية على ما يسمع ويرى"[35]

ومعنى هذا أن يكون عقل الباحث فارغا من أي معلومات سابقة عن موضوعه، قد تضلله، وتجعله يتجه وجهة تخالف ما يقتضيه منهجه . ولذلك جعلوا الشك أهم ركن في منهجهم، واستعانوا به في تمحيص الأقوال، والكشف عن الأخطاء، ونقد المصادر، وأن سعة العلم تقوي الروح النقدية، وتجعل الباحث لا يرضى بما يسمع ويرى، ولا يستقي آراءه من السابقين، ولا يأخذه فرط الإعجاب بهم، لأن ذلك يمنعه من التثبت وكشف الحقائق .

ولا مانع من أن يستفيد الغربيون من هذا المنهج في بناء نظامهم المعرفي في القرون الوسطى، والتي تعرف في حقلنا المعرفي

بقرون التنوير والإنجاز العلمي، وهي القرون التي أنتجت أقطاب العقل الإسلامي المبدع في مختلف حقول المعرفة الإنسانية أمثال: الجاحظ وابن قتيبة وجابر بن حيان والحسن بن الهيثم والبيروني والرازي وابن سيناء وابن النفيس والغزالي وغيرهم .

وإذا كان علماء العصر الحديث يؤكدون أن منهج الشك من أهم ابتكارات "فرنسيس بيكون" و"ديكارت"، فإن المستقرئ لإنجازات العرب العلمية يجدهم قد مارسوا هذا الأسلوب العلمي، وكانوا سباقين إليه، بشهادة الغربيين المنصفين . يقول : "غوستوف لوبون: "ويعزى إلى بيكن على العموم، إنه أول من أقام التجربة والترصد،الذين هما ركنا المناهج العلمية الحديثة، ما قام الأستاذ،

ولكنه يجب أن يعترف اليوم بأن ذلك كله من عمل العرب وحدهم وقد أبدى هذا الرأي جميع العلماء الذين درسوا مؤلفات العرب، ولاسيما "هنبولد" فبعد أن ذكر هذا العالم الشهير أن ما قام على التجربة والترصد هو ارفع درجة في العلوم قال : إن العرب ارتقوا في علومهم إلى هذه الدرجة التي كان يجهلها القدماء تقريبا" [36]

وقد كان تأثيل النتائج بالشك من أهم الوسائل التي توسل بها النظام من أجل الوصول إلى معرفة اليقين، فقد كان يلح على

استخدامه، ويجعل منه أولى مراحل التثبت واليقين على نحو قوله : " الشاك أقرب إليك من الجاحد، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك، ولم ينتقل أحد من اعتقاد إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك" (37)

والمتأمل لكتابات الجاحظ يجد لديه وعياً كبيراً بهذا المنهج، فقد كان يوظفه في أبحاثه، ويوصي بوجوب تعلمه، ومعرفة الحالات الموجبة له، لأن به يعرف التوقف والتثبت " اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة له لتعرف مواضع اليقين والحالات الموجبة له، وتعلم الشك في المشكوك فيه تعلما، فلو لم يكن في ذلك إلا تعرف التوقف ثم التثبت،لقد كان ذلك مما يحتاج إليه" (38)

وبلغت عناية الجاحظ بالشك كأسلوب للتثبت المعرفي أن جعله سبيلا للتفريق بين عقليه العوام الساذجة، وعقلية الخواص المركبة " العوام أقل شكوكا من الخواص، لأنهم لا يتوقفون في التصديق، ولا يرتابون بأنفسهم فليس عندهم إلا الإقدام على التصديق المجرد أو على التكذيب المجرد وألغوا الحالة الثالثة " (39)

إن أسلوب الشك عند الجاحظ ليس غرضه الإنكار والمعاندة، بل هو مرحلة ضرورية قبل الوصول إلى اليقين. وقد مارسه ضمن بيئة المتكلمين التي اتخذت الشك منهجاً للرد على الملحدين الذين استخدموا الشك للتضليل وصد الناس عن الإسلام، ولذلك لم يكن شكه نابعاً من اضطراب فكري أو تخبط مذهبي، كما كان عند الغزالي حين شك في المحسوسات والضروريات، أوشك المذهبيين الذين انطلقوا من الشك ووصلوا إليه، لقد كان سبيلاً إلى المعرفة، غايته الوصول إلى اليقين،ولذلك كان يوصي بتعلمه، ويمدح شك المتكلمين .

وتنبع نزعة الشك عند الجاحظ من صلته بالمتكلمين والفلسفة القديمة التي كان يميزها اتجاهان: اتجاه الشك المذهبي وانقسم أصحابه إلى فرعين . أحدهما يمثل فلسفة التوقف عن إصدار الحكم في المعرفة،والثاني أقر أنّ المعرفة اليقينية لا يمكن اكتسابها، وبذلك شككوا في نتائج العلم، وأعلنوا عدم الاكتراث بها. والثاني الشك المنهجي عند سقراط في قولته المشهورة " إنني أعرف شيئاً واحداً هو إنني لا أعرف شيئاً" وقد ظهرت هذه النزعة عند أرسطو الذي فطن إلى العلاقة الوثيقة بين الشك المنهجي والمعرفة الصحيحة "(40)

ويبدو أن منهج الشك قد ترك صدى في الفكر الإسلامي،ولم يكن تأثيره مقصوراً على المعتزلة فحسب،بل امتد إلى علماء السنة كالغزالي، والحسن بن الهيثم صاحب كتاب "الشكوك على بطليموس". فالغزالي المتصوف تـ 505هـ المعروف بخصامه للمعتزلة، وعداوته الشديدة للفلسفة والفلاسفة، قد مارس الشك، وكان من أهم وسائله في البحث عن اليقين،لأن استبعاد الشك في عملية البحث عن الحقيقة يجعل العقل تحت سلطان التقليد والعمى والتيه "لو لم يكن في هذه الألفاظ إلاّ ما يشكك في اعتقادات الموروث، لكفى بذلك نفعاً، فإن من لم يشك لم ينظر، ومن لم ينظر لم يبصر، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة "[41]

وإذا كان الغربيون ينسبون الشك المنهجي الإرادي إلى " ديكارت " الذي شك في الحواس [42]فإن الغزالي شك قبله بخمسة قرون في الحواس، فحاسة البصر تعطينا صورة تخالف الحقيقة " وتنظر إلى الكوكب فتراه صغيراً في مقدار دينار، ثم الأدلة الهندسية تدل على أنه أكبر من الأرض في المقدار...أما تراك تعتقد في النوم أموراً وتتخيل أحوالاً وتعتقد إثباتاً واستقراراً، ولا تشك في تلك الحالة فيها، ثم تستيقظ فتعلم أنه لم يكن لجميع متخيلاتك ومعتقداتك أصل طائل " [43]

أما الحسن بن الهيثم تـ 420هـ فقد وظف منهج الشك توظيفاً يكشف على دقة منهجه، وعمق وعيه، وتجرده للحقيقة والإيمان بها، لأن حسن الظن بالعلماء –في نظره- كثيراً ما يقود إلى الضلال، ويمنع من كشف الأخطاء والمغالطات، وفي هذا السياق نبه إلى مغالطات وجدها في مقدمة " كتاب الشكوك " لبطليموس، مبيناً أن حسن الظن بالرجل كان سببا في عدم إدراكها، فقد وجد في هذا الكتاب "مواضع مشبهة" و"ألفاظاً بشعة" و"معاني متناقضة " لأن الله سبحانه لم يعصم العلماء من الزلل ولم يحمهم من الخلل، والإمساك عنها يعد هضماً للحق، وظلماً للقارئ . يقول : " فرأينا في الإمساك عنها هضما للحق، وتعدياً عليــه، وظلماً لمن ينظر بعدنا في كتبه في سترنا ذلك عنه، ووجدنا أولى الأمور ذكر هذه المواضع، وإظهارها لمن يجتهد من بعد ذلك في سد خللها، وتصحيح معانيها، بكل وجه يمكن أن يؤدي إلى حقائقها" [44]

وفي الواقع فإن نزعة الشك هاته صارت مزاجا يكاد يكون عاماً في جميع حقول المعرفية، يمارس على نطاق واسع، مـن لدن طائفة من العلماء مختلفة المشارب،

متعددة المرجعيات، نظراً للتداخل المعرفي، وعدم استقلال فروع المعرفة وانفصالها عن بعضها البعض، بحيث كان الشك عندها ضرورة منهجية لتمحيص الحقائق، والتثبت من صحة الأفكار، ونقد المصادر، وتصويب الأخطاء، وإكمال النقص، وعدم الانبهار بأقوال المفكرين، إنه منهج نقدي يكشف عن عقلية واعية، في تمحيص الحقيقة " مثل هذا في التراث العربي كثير. وسيان أن يكون أصحابه علماء أو فلاسفة، صوفية أو متكلمين، فإن فروع المعرفة العلمية في عصرهم لم تكن قد استغل بعضها عن بعض. وقد وضح مما أسلفنا أنهم أكدوا ضرورة الشك الإرادي الذي يعوق التســرع في التصديق، ويغري بتمحيص الحقائق، ونقد المصادر، ويمهد للتثبت من صحة الأفكار، وقد زاولوا بالفعل هذا الشك في دراستهم العلمية، فلم يتعجلوا التسليم بما يقوله مشاهير المفكرين بدافع الإعجاب بهم، والإفراط في تقديرهم، وأخذوا يعيدون النظر فيما يتلقونه عنهم، ويمحصون أفكارهم ليقفوا على مدى صوابها أو مبلغ خطئها، ويعملون على إكمال نقصها، أو إبدالها بغيرها من أفكار تثبت التجربة أو يشهد العقل بصوابها "[45]

اخضاع الملاحظات إلى التجارب:

كانت التجربة من أهم الوسائل التي توسل بها علماء المسلمين لتلمس الواقع والإفادة من معطياته الحسية. وقد مارس العــرب أنماطاً من التجارب أجروها على الحيوان، شكلت نوعاً من الممارسة النقدية، وإن لم يجر ذلك على نطاق واسع، وضمن منظور شامل، تهيأ له مختبرات علمية على نحو ما هو معروف في العصر الحديث . وبذلك كان لهم الفضل في تأسيس هـذا المنهج
الذي يعد من أقوى تجليات الحداثة في العلم الحديث " ومعلوم جيداً دور العلماء العرب في حمل لواء المنهج العلمي ومواصلة
البحث التجريبي في العصور الوسطى، التي كانت مظلمة في أوروبا وشهدت انحسار الحركة العلمية عنها"[46]

اتجه العرب مبكراً إلى البحث التجريبي لدراسة بعض الظواهر الجزئية، والمنهج التجريبي يقوم على الملاحظة الحسية التي هي أهم أركان اكتشاف الحقائق العلمية، ولذلك مارسها العرب وجعلوها مصدراً للحقيقة، وكشف الأخطاء التي وقع فيها أسلافهم . وقد احتضنت التجربة بيئة الاعتزال، التي سيطر على أبحاثها منهجاً

تجريبياً في دراسة الحيوان، وكانت مدرسة بغداد تمتاز بروحها العلمية، ترفض ما لا يثبت بغير التجربة "إن أهم ما اتصفت به مدرسة بغداد في البداءة هو روحها العلمية الصحيحة التي كانت سائدة لأعمالها، وكان استخراج المجهول من المعلوم والتدقيق في الحوادث تدقيقا مؤديا إلى استنباط العلل من المعلومات وعدم التسليم بما لا يثبت بغير التجربة مبادئ قال بها أساتذة من العرب، وكان العرب،في القرن التاسع من الميلاد،حائزين لهذا المنهاج المجدي الذي استعان به علماء القرون الحديثة بعد زمن طويل للوصول إلى أروع الاكتشافات" [(47)]

وفي ضوء هذه الشهادة يتضح أن التجربة أعظم نشاط معرفي مارسه العرب في بناء مضامين الحضارة الإسلامية، فقد أظهروا اجتهادا عجيبا في فحص المادة وضبطها، وكانت مدرسة الاعتزال رائدة في توظيف هذا المنهج حين أخضعت الحيوان للتجربة ورصدت سلوكاته وردود أفعاله، ويحدثنا الجاحظ أن أستاذه إبراهيم النظام كان يجري تجاربه على ذكر النعام، ويلاحظ كيف يبتلع هذا الحيوان الجمر والحجارة المحماة والحديد، وكان يسقي بعض الحيوانات الخمر ويرصد النتائج وإنه " لم يجد في جميع الحيوان أملح سكرا من الظبي، ولولا أنه من الترفه لكنت لا يزال الظبي عندي حتى أسكره وأرى طرائف ما يكون منه" [(48)]

وكانت التجربة سندا يقوي إمكانات المعاينة والملاحظة لدى الجاحظ، ووسيلة لتلمس الواقع واستيعابه، فقد روى تجارب أجراها معاصروه وأفاد منها، قال: " دخلت مرة أنا وحمدان بن الصباح على عبيد بن الشونيزي فإذا عنده برنية زجاج فيها عشرون عقرباً وعشرون فأرة، فإذا هي تقتتل فخيل لي أن الفئران قد اعتراها ورم من شدة اللسع. ورأيت العقارب قد كلت عنها وتركتها، ولم أر إلا هذا المقدار الذي وصفت. وحدثنا عنها عبيد بأعاجيب. ولو لا كان عبيد إسنادا لخبرت عنه، ولكن موضع البياض من الكتاب خير من جميع ما كان لعبيد" [(49)]وكان الجاحظ يجمع في مؤلفاته بين معرفة السمع وعلم التجربة، كما أشار إلى ذلك في كتاب الحيوان "وهذا كتاب...أخذ من طرف الفلسفة، وجمع بين معرفة السماع وعلم التجربة " [(50)]. وأكد على لسان صاحب الكلب أن في التجارب أصنافا من المنافع والمرافق، فقال: "احتجاج صاحب الكلب بالأشعار المعروفة. وما أوجد العيان فيها، وما استخرجت التجارب من أصناف المنافع والمرافق"[(51)]. ودفعه إيمانه بالتجربة

كبرهان على صدق المعرفة إلى رفض الخرافات ونقد معتقدات العوام، فرفض ما كانوا يروجونه عن الجن والغيلان، لأن ذلك لا يثبت أمام العقل، ولا يخضع للتجربة[52]

إن التراث العربي يتوفر على رصيد من التجارب والمنجزات من أبرزها الروح العقلانية التي تنشف عن ممارسة نقدية اتسمت في بعض جوانبها بدقة الملاحظة، وصدق التجربة، وتحليل بعض الظواهر الطبيعية والنفسية، ولذلك نجد الجاحظ يعلل أسباب مناغاة الطفل للمصباح، ويبين فوائد المناغاة [53]، ويعلل سبب رؤية البرق قبل سماع صوت الرعد، وكأنه يكشف عن قانون من قوانين الفيزياء. "ومتى رأيت البرق سمعت الرعد، والرعد يكون في الأصل قبله، ولكن الصوت لا يصل إليك في سرعة البرق، لأن البرق والبصر أشد تفاوتا من الصوت والسمع، وقد ترى إنسانا بينك وبينه رحلة فيضرب بعصاه حجرا أو دابة أو ثوبا، فيُرى الضرب، ثم يمكث وقتا إلى أن يأتيك الصوت" [54]

وكان جابر بن حيان ت 198هـ الذي يعتبره العرب في علم الكيمياء كأرسطو في علم المنطق، يحتل مكانة رفيعة في البحث التجريبي، يعتمد فيها على المعاينة الحسية دون السماع " يجب أن نعلم أنا نذكر في هذه الكتب خواص ما رأيناه فقط، دون ما سمعناه أو قيل لنا وقرأناه وما بطل رفضناه، وما استخرجناه نحن وقايسناه على أقوال هؤلاء القوم "[55]

وقدم الحسن بن الهيثم ت 420هـ خطوات المنهج التجريبي الذي استند إليه في أبحاثه في مقدمة كتاب المناظر، وهو منهج ينطلق من الملاحظة الحسية الجزئية، ثم يرتقي في التمحيص مع الحذر من الوقوع في الخطأ، حتى يبلغ اليقين الذي تزول معه الشبهة لمقاييس. يقول: " نبتدئ في البحث باستقراء الموجودات ما يخص البصر في حال الإبصار، وما هو مطرد لا يتغير، وظاهر لا يشتبه فيه من كيفية الإحساس، ثم نرتقي في البحث والمقاييس على التدريج والتدريب مع انتقاء المقدمات، والتحفظ من الغلط في النتائج ... ونصل بالتدريج واللطف إلى الغاية التي عندها يقع اليقين، ونظهر مع النقد والتحفظ بالحقيقة التي يزول معها الخلاف، وتنحسم مع مراد الشبهات " [56]

وبالرغم ممّا ظفر به الطبيب اليوناني "جالينوس" من إعجاب وتقدير لدى أطباء العرب، فإن الطبيب العربي موفق الدين عبد اللطيف البغدادي تـ 629هـ/ 1231م رفض- بناء على خبرته الحسية- ما قاله "جالينوس " من أن عظم الفك الأسفل عظمان .يقول " إن الكل قد أطبقوا على أنه (عظم الفك الأسفل) عظمان بمفصل وثيق عند الحنك . وقولنا الكل نعني به جالينوس وحده وشرائحه، فإنه هو باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينيه، وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا، والباقي لم يخرج إلى لسان العرب . والذي شاهدناه من هذا العضو أنه عظم واحد، ليس فيه مفصل ولا درز أصلا، واعتبرناه(فحصناه) ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأضعاف من الاعتبارات، فلم نجده إلاّ عظماً واحدا من كل وجه. ثم إننا استعنا بجماعة متفرقة اعتبروه(فحصوه) بحضرتنا فلم يزيدوا على ما شاهدناه"[(57)]

وقد اعترف راندل أن التفكير العملي الذي سعى العرب إلى تكريسه بإقامة التجارب والمختبرات العلمية في جميع حقول المعرفة، وتسخير ما توصلوا إليه من نتائج لخدمة الإنسانية، قد أفادت منه أوربا في نهضتها الصناعية والعلمية إفادة واسعة " لقد كان العرب يمثلون في القرون الوسطى التفكير العلمي والحياة الصناعية العلمية اللذين تمثلها في أذهاننا اليوم ألمانيا الحديثة.وخلافا للإغريق، لم يحتقر العرب المختبرات العلمية والتجارب الصبورة في الطب وعلم الآليات، بل في جميع العلوم، فقد استخدموا العلم في خدمة الحياة الإنسانية مباشرة، لم يحتفظوا به كغاية في حد ذاته، وقد ورثت أوربا عنهم بسهولة ما ترغب أن تسميه " روح بيكون" التي تطمع إلى توسيع حكم الإنسان على الطبيعة"[(58)] .

إن المنجزات العلمية التي حققها العرب قد اتسمت بالنضج والتنوع المعرفي، وكان بإمكانها – لو استمرت- أن تحدث ثورة علمية كتلك التي حدثت في أوربا وكانت سببا في اكتشاف المحرك الآلي، وكان يزيد في فرص نجاحها لو اتخذت حيزا مؤسساتيا يتجاوز الإطار الفردي المحدود، ويتجاوز ما كان سائدا من نظم استبدادية، عجزت عن بناء نموذج جديد، يبتعد عن النمطية التي ما زالت مترسخة في أنظمة الحكم إلى اليوم والتي تتعامل دائما مع المستجدات بذهنية

الماضي، محاولة ترويض كل جديد والتحكم فيه بما يحفظ لها ماء الوجه، ويحميها من ردات الفعل العكسية، حفاظا على مكاسبها، واستمرا بقائها.

وحين نستأنف النظر في منجزات الماضي لا يعني السعي إلى تكريس شرعيته وإحلاله محل الحاضر، بل تأسيس لانطلاقة جديدة عن طريق استيعاب إيجابياته عسى أن تحقق قفزة نوعية تشبه إلى حد ما القفزة التي حققتها أوربا في بداية اتصالها بالحضارة العربية فيما يسمى عندهم بالقرون الوسطى.

الهوامش :

---

(1) ديفيد ب .رزينك : أخلاقيات العلم ، ترجمة عبد النور، عبد المنعم ، عالم المعرفة/2005ص81

(2) محمود الذوادي ، نقلاً عن عبد الوهاب المسيري ، إشكالية التحيز. رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد مج2، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ط2 1418. 1997

(3) جاسم الفارس : أسسس البحث العلمي الإسلامي ، مجلة الأحمدية ، العدد10 2005/10 ص:308

(4) ج.ج كراوثر: قصة العلم ، ترجمة يمنى الخولي ، وبدوي عبد الفتاح ، ص: 57، نقلاً عن يمنى الخولي : فلسفة العلم في القرن العشرين، عالم المعرفة/2000ص: 38

(5) كاتي كوب : إبداعات النار، عالم المعرفة / 2001ص: 75

(6) رشدي راشد : الثقافة العلمية واستشراف المستقبل العربي ، كتاب العربي 67، ط2007/1ص:24

(7) يمنى الخولي : المصدر السابق ص:37

(8) المصدر السابق ص:44

(9) المصدر السابق ص:38

(10) المصدر السابق ص:33

(11) أسد رستم : مصطلح التاريخ، ط1422/1هـ 2002م ، المكتبة العصرية . صيدا بيروت،ص:6

(12) اختلاف الروايات وأثره في توثيق النصوص، مجلة الدرعية ، العدد8/ فبراير 2000،ص:

(13) الجاحظ : الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون، الكتاب العربي، بيروت 1969م، ص:248

(14) رسائل الجاحظ ، تحقيق حسن السندوبي، المكتبة التجارية ، القاهرة ، ج4، ص:20

(15) الجاحظ : الحيوان ج1، ص: 144

(16) ديفيد ب.رزينك : أخلاقيات العلم ، عالم المعرفة /2005

(17) رسائل الجاحظ ج1، ص:1414

(18) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت/1404هـ. 1984م، ج1،ص:459

(19) ابن خلدون : المقدمة ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ،ص:59

(20) المصدر السابق،ص:57

(21) المصدر السابق ،ص:58

(22) المصدر السابق ،ص:61

(23) أسد رستم : مصطلح التاريخ ،ص:6

(24) عبد الملك منصور: الثقافة العلمية واستشراف المستقبل ،ص:42
(25) المصدر السابق ،ص:42
(26) يمنى الخولي: فلسفة العلم في القرن العشرين،ص:65
(27) رسائل الجاحظ،ج3،ص:103
(28) المصدر السابق
(29) ينظر نماذج في الموشح للصولي،ص:384، ومعجم البلدان ج6،ص:43
(30) ابن قتيبة : الشعر والشعراء، تحقيق مفيد قميحة ، دار الكتاب العلمية ، بيروت،ص:10
(31) الصولي : أخبار أبي تمام، ص:176
(32) أبو الفرج الاصفهاني : الاغاني ، دار الثقافة،ط6ج4،ص:258
(33) رسائل الجاحظ ،ج3،ص:131
(34) ديفيد ب.رزينك : المصدر السابق ،ص:127
(35) بلقاسم الغالي: الجانب الاعتزالي عند الجاحظ، دار ابن حزم،ط1/1420هـ.1999م،ص:153
(36) غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مكتبة الأسرة، القاهرة ،ص:435
(37) الجاحظ : الحيوان،ج6ص:35
(38) المصدر السابق ،ج6،ص: 36
(39) المصدر السابق ،ج6،ص:35
(40) يحي هويدي: مقدمة في الفلسفة ص:112،111، نقلاً عن بلقاسم الغالي: المصدر السابق،ص:156
(41) توفيق الطويل:في تراثنا العربي الإسلامي ،ص:12
(42) المصدر السابق ،ص:12
(43) الغزالي : المنقد من الضلال ،ص:4
(44) ا توفيق الطويل :المصدر السابق ،ص:13
(45) المصدر السابق ،ص:13
(46) يمنى الخولي : المصدر السابق ، ص:37
(47) غوستاف لوبون: المصدر السابق ، ص:435
(48) الجاحظ: الحيوان ج2 ، ص:230
(49) المصدر السابق ج5 ،ص: 248
(50) المصدر السابق ج1 ، ص:11
(51) المصدر السابق ج2، ص:5
(52) المصدر السابق ج1 ، ص:185
(53) بلقاسم الغالي: الجانب العتزالي عند الجاحظ ، ص:139
(54) الجاحظ : الحيوان ج4 ، ص:408
(55) توفيق الطويل : المصدر السابق ، ص:17
(56) المصدر السابق ،ص:17
(57) المصدر السابق، ص 17-18
(58) راندل : تكوين العقل ، ترجمة : جورج طعمة ، ص:314